تعقيدات الصراع العربي الصهيوني
بين عمل التاريخ وعمل الجغرافيا وعمل الشياطين

تقول البنت الإسرائيلية الواقفة على المعبر الحدودي برفح للقادمين من بلاد أخرى إلى قطاع غزة: أهلا بكم في إسرائيل! وتقول الإذاعة الإسرائيلية عن خط الحدود عند رفح: الحدود المصرية الإسرائيلية! ويقول آريئيل شارون عقب رفع العلم الإسرائيلي فوق بيت الشرق في القدس إن بيت الشرق سيظل إسرائيليا إلى الأبد! وهكذا يبادر هذا النفر المسؤول من الإسرائيليين، على مألوف عادتهم، إلى إلحاق مسروقاتهم الجديدة بمسروقاتهم القديمة، ويتضخم في عيونهم أنفهم الذي لا ينظرون إلى أبعد منه، فيحسبون أن كل شيء في العالم يمكن أن يتخذ بمطلق إرادتهم الحجم الضخم الذي اتخذه أنفهم حين ركزوا النظر عليه وانقطعوا عن رؤية ما حوله، على طريقة الأحول المحروم من استقامة البصر، وربما طريقة السكران الذي يرى الشيء الواحد شيئين، وربما طريقة المضروب على رأسه الذي يرى الشيء الواحد أشياء عديدة!

والحق إن الحركة الصهيونية ولدت حولاء، فلم تر حين تطلعت من مسقط رأسها في بال بسويسرا نحو فلسطين إلا أنها بلاد خالية من السكان ذلك الخلو الذي يبرر الاستيلاء عليها (أرض بلا شعب لشعب بلا أرض) متجاهلة شعبها صاحب المكان، بمدنه وقراه وبيوته ومدارسه ومساجده وكنائسه. ثم رافقها هذا الحول الخلقي مهما اصطدمت بأصحاب المكان وعاينتهم من غير إبهام، لأن التجاهل صار سياسة وليس مجرد عيب خلقي أناني. ومن المؤكد أيضا أن إسرائيل وليدة المشروع الصهيوني هي اليوم سكرى بالقوة التي راكمتها في ترسانتها الحربية وفي حساباتها البنكية. وهي مع ذلك كله مضروبة على رأسها، دون أن يكون في وسع الترسانة الحربية والحسابات البنكية أن ترفع عن رأسها الضربات الموجعة.

عن أي أبد يتحدث شارون، بينما هو أعجز من أن يفي لناخبيه في اللحظة الراهنة بوعده لهم بمجرد الأمان؟ وعن أي أبد يتحدث أصلا أي إنسان، والأبد لله وحده. والإنسان مهما طال عمره فهو عابر سبيل. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام؟

غزاة.. لا لاجئون

لا تعدو مثل هذه الأقوال أن تكون نوعا من التخبط الذي يقع فيه القادة الإسرائيليون، ويوقعون معهم الجمهرات الإسرائيلية والحركة الصهيونية كلها في تعقيدات جديدة، على نحو يفاقم مشكلتهم المعقدة من أساسها، أي منذ اختاروا أن يدسوا أشتات اليهود القادمين من أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية قسرا واقتحاما في قلب العالم العربي والإسلامي على الشاطئ الشرقي للمتوسط، ويقيموا لهم دولة على أنقاض شعب آخر، في بيئة لا يمتون لها بصلة، وذلك على الرغم من ردود الأفعال المحتومة المنتظرة من قبل أصحاب المكان، والتي يصعب كثيرا أن يوقفها مرور الزمن.

لم يكن ممكنا أن يستقبلهم العرب الفلسطينيون أهل البلاد بالطبل والزمر. لا سيما والجميع يعرفون أن هؤلاء القادمين جاؤوا غزاة لا لاجئين. ولما كانوا ينتمون إلى مجتمعات وثقافات تختلف اختلافا هائلا عن مجتمع أهل البلاد وثقافتهم، فقد عللوا الاختلاف بكونهم عنصرا متفوقا. وتبنى قادتهم نهجا في تربية الأجيال النامية يقوم على تعزيز فكرة التفوق في جانبهم والوضاعة في جانب العرب. وأرادوا بتعزيز الكراهية والحقد الدفين أن يهيئوهم للحرب. ودأب قادتهم في تلك المرحلة أمثال دايان وإيجال ويادين على إطلاق الشعارات المختصرة التي تخدم غرضهم: العرب لا يفهمون إلا بالقوة. العرب لصوص. العرب منحطون. العرب قتلة. وفي نيويورك راحت المنظمات الصهيونية تسمم الجمهور الأمريكي وتجمع منه التبرعات لصالح المحاربين اليهود تحت شعار: ادفع دولارا تقتل عربيا!

بقيت القنبلة الذرية!

إن فكرة امتلاك القوة واستخدامها ضد العرب تشكل واحدة من العقائد الأولية في الشخصية الإسرائيلية. وقد ظلت وزارة الحرب الإسرائيلية تسعى وراء كل جديد في عالم الأسلحة وتحلب ضرع دافع الضرائب الأمريكي للحصول على السلاح بالمجان، وتغتنم الفرص لاستخدامه في أي جسم عربي. وهي بالفعل لم تترك سلاحا لم تستخدمه ولو على سبيل التجربة، ما عدا القنبلة الذرية التي يشتهي كثير من الإسرائيليين، مع ذلك، أن يستخدموها ضد البلدان العربية المجاورة (ولا بد أنهم خصصوا للاستخدام ضد الفلسطينيين أسلحة نووية تكتيكية خوفا من أن يرتد على الإسرائيليين مفعول القنبلة الكبيرة فيما لو استخدموها في فلسطين).

لقد أدخلوا أنفسهم في تعقيد كبير، حين اختاروا فلسطين الواقعة وسط عالم عربي وإسلامي لا يتقبلهم لأسباب تاريخية. ودخلوا البلاد في ظل دولة استأجرتهم لتستخدمهم ضد شعب المنطقة ومصالحه القومية، وحينما تراجعت مكانتها الدولية جعلوا أنفسهم في خدمة دولة ورثت الدولة الأولى في نهب خامات المنطقة وأسواق المنطقة. وجاؤوا من بيئات صناعية مدنية إلى بلاد ريفية عشائرية لم تكن قد عرفت الثورة الصناعية بعد. فحسبوا ضعف أهاليها ناجما عن عيب ذاتي في قدراتهم الفطرية، وحملوا لهم في أنفسهم الاستصغار (إن لم يكن الاحتقار).

ثم زادوا الأمر تعقيدا بأن أجازوا لأنفسهم الاعتقاد أن الصنف العربي حصرا من البشر لا يمكن التعامل معه إلا وهو راغم الأنف بالقوة. وارتكبوا مذابح ديرياسين وأخواتها وقبية وأخواتها وكفر قاسم وصبرا وشاتيلا وخانيونس وحارة الزيتون والرمال الجنوبي وغيرها وغيرها.

لقد صدقوا كتبهم التراثية التي لا تعد الإنسان الآخر إنسانا مختلفا وإنما نوعا من الحيوانات. وقد راق لهم أن يثبتوا صحة تلك الكتب بفعلهم، بعدما استلهموا فعلهم منها. وهكذا دخلوا في دوامة ارتكاب المذابح اليومية والسعي إلى الحاخامات أمثال عوفاديا يوسيف لالتماس البركة والتزود بالمدد الروحي العدواني ثم العودة لاقتراف المذابح. وبينما يتكلم الإسرائيليون كثيرا وينشرون دعاياتهم في أوروبا وأمريكا محاولين أن يستنهضوا روحها الصليبية القديمة ضد الأصولية والأصوليين في البلاد العربية، فإن الحقيقة أن إسرائيل منذ قيامها تتلخص في (أيدولوجية حاخام ومبادرة جزار من تلاميذه الروحيين). وكانت القشرة العلمانية والاشتراكية التي اتخذها حزب الماباي بزعامة بن غوريون المؤسس التنفيذي لإسرائيل، تمويها أدى إلى حجب تلك الحقيقة على الرغم من أن الصهيونية ليست شيئا آخر خلاف الأصولية التلمودية.

بعد اهتراء القشرة

أما اليوم ففي أتون الصراع الراهن لم يعد بالإمكان التغطية على هذه الحقيقة بعد اهتراء القشرة العلمانية لحزب العمل. فالاستيطان يعتمد على الحاخامات وأتباعهم. واغتصاب أراضي الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة يعتمد على عنف وحشي يقوم به جنرالات وسياسيون جاهزون للمذابح، وتقتدي بهم قاعدة عريضة من جنود الجيش وغيرهم. وقد تعاظم هذا تعاظما واضحا وهائلا في هذه الأيام. ولا سبيل لفهم ما يجري دون أخذ ذلك بالنظر والاعتبار. فالبارزون على المسرح وأصحاب الفعاليات هم الحاخامات والجنرالات وأتباع أولئك وهؤلاء. وغيرهم مجرد أصوات في البرية، ليست لها فاعلية ولا وزن. وسيظل الكتاب الذين يحاولون تعليل ظاهرة وصول إيهود باراك وآريئيل شارون تباعا إلى الحكم دون سائر الآخرين، يضربون في متاهات الافتراضات الذهنية العقيمة، دون أن يصلوا إلى شيء. وفي هذه الظاهرة، ظاهرة تعاقب باراك وشارون، على الرغم من اختلاف القشرة الحزبية والتسميات بين يمين ويسار، تكمن الحقيقة. فكل منهما جنرال. وكل منهما مسكون في روحه بالاغتيال والمذابح. وسيرة شارون في التصرف حيال الفلسطينيين في الضفة والقطاع لم تزد على كونها استمرارا لسيرة باراك. وربما كان ما أوقعه باراك من التنكيل أشد ضراوة مما أوقعه شارون.

ما نكابده اليوم على يد القوات المسلحة الإسرائيلية والمستوطنين لا يختلف على كل حال إلا بالدرجة عما كابدناه على أيديهم من قبل طوال خمسين سنة. لقد جاؤوا إلى بلادنا تحت ذريعة الهروب من البطش الهتلري، فإذا بهم أشد بطشا من هتلر. واتهمونا بالتحريض عليهم وهم يتبنون مناهج تربوية للأطفال والشبيبة تزرع الحقد والاحتقار عقيدة في نفوسهم حيال العرب أهل البلاد.وطلبوا منا أن ننشر ثقافة السلام وهم يضمرون نوايا الحرب ويستمعون إلى حاخامات الحرب. ولم يتوقفوا عن مهاجمة الأمم المتحدة مع أنها أنشأتهم بقراراتها. وجل ما يبدون الاستعداد لتقديمه للفلسطينيين هو قبولهم عمالا في المصانع الإسرائيلية أو سماسرة لترويج البضاعة الإسرائيلية في البلاد العربية، مع أن الفلسطينيين يعرفون أن الإسرائيليين يقيمون على الأراضي التي كانت حتى عام ١٩٤٨ قرى ومزارع للفلسطينيين، ومع أن الفلسطينيين يأنفون من القيام بدور السمسار لمغتصب وطنه. ويقوم رجال ا٦لام الصهيونيين مؤخرا بسؤال الرئيس العربي: ما قولك فيما يردده البعض من أننا دخلاء على المنطقة؟ وينسون أنهم عمليا جعلوا الفلسطينيين دخلاء في وطنهم وشتتوهم تحت كل كوكب وأكسبوهم الجنسيات الأخرى وجعلوا دخولهم إلى البلاد رهنا بالتأشيرة والتصريح الذي يصدره المستوطن لصاحب المكان. إن الإسرائيليين يتصرفون ويفكرون كما لو أن الإنسان الفلسطيني هبط من الفضاء على هذه البقعة من العالم غازيا لأصحابها الإسرائيليين المستقرين فيها، وهكذا يقلبون الحقيقة رأسا على عقب، ويريدون منا نحن الفلسطينيين والعرب أن نصدق مزاعمهم وإلا كنا دعاة حرب.

أمام هذه العقيدة الصهيونية وهؤلاء الجنرالات الجزارون سيكون الصراع طويلا كما اعترف رئيس الأركان الإسرائيلي نفسه. وسيكون داميا كما هو واضح للعيان. فالعقدة تكمن في العبارات الأخيرة التي تحدثنا بها: إن الغاصب ينتحل شخصية صاحب المكان. ولا يكفيه إلا أن يفرض على صاحب المكان الاعتقاد أنه دخيل على أرض آبائه وأجداده. وهو يعمل وفقا لسياسة الاغتصاب والاستعمار والاستيطان والاقتلاع. ويحمل أشد مشاعر العنصرية حدة وفظاعة. ويتوسل بحكم العالم إلى أن ينفرد بأولى القبلتين وثالث الحرمين.